وجه الضحية ووجه الشاهد

ماذا تود ان تقوله لنا هذه الرسوم ؟ لا بد لنا من ن نبدأ دائمـــا بالسؤال · فالممرات التي يقودنا فيها هذا التأمل، تصل بنا في النهاية الى تشتت في الاصغاء ، وقلق في القدرة على التحديق ·· وهكـذا ينبت السؤال ، فالسؤال طعم يشبه طعم نهاية الاشياء ، ويشبه بعضا من طمأنينة الجواب ·

وحين نبدأ في صياغة الجواب ، جواب السؤال الذي طلع من بين هذه الرسوم ، تفتح لنا العين امام تراكم الخطـــوط والاشكـــال والوشوشات ، نوافذ تطل على ايام تحمل راية حمراء اسمهـــا : الحرب ·

كيف يمكن ان يروى الواقع مرتين ؟ وكيف يمكن ان نقترب مـــن الحرب مرتين ؟مرة في الجسد كله ومرة في الذاكرة ؟ مرة تكون بين ايدينا وفوق اكتافنا ، وفي احلامنا ، وامام اعيننا ، ومرة تكـــون صمتا ، يغري القلب في الرجوع وتأمل ما حـــدث · للرجـــوع او الاستيقاظ ·

ثمة اذن شهادة ؟ ربما تكون شهادة · الا ان صوتا صارخا يطلـع من ههنا · صوتا يشبه الصراخ ، والصراخ المزوج بجرح عميق ، وصراخ يعلو مع كل ورقة ، مع كل رؤية ، ويكمل صعوده غارزا في السماء حربة من حنان · نعم هكذا يصير الصراخ غطاء لراحـــة القلب ، لراحة الذاكرة بعد تجوالها المخيف بين ســـاعات ضعف الانسان وسقوطه ·

السقوط · او الحرب · او تلك الساعات الطويلة ، حين كانـــت تجيء الينا الاخبار عبر الهواء وعبر الشمس التي جمدت هناك فـــي وسط الظهيرة ، لتخبرنا ان ثمة دمع غزير سوف يملأ العين · وان الايام سوف تنعقد حول الجراح ·

هكذا فجأة اهتزت الارض · او بدأت تغير اسماءها ·· الاوقـات جميعها : ساعات الفجر ، وساعات الثالثة بعد الظهر ، او ساعـات

التاسعة ليلا · او ساعات العيون وهي تحدق ولا ترى ، وساعات صياغة القبول في الموت قبل ميعادة · وساعات القفز اليه كما تنطلق السهام ·

ها هي كل تلك الساعات مكتوبة ههنا ، بلغة وبخط وبرموز وحول الاشارات · مكتوبة بحبر اسود كان طيلة الزمن وهو يسيل فوق البياض يظن نفسه دما · فحكايات الدماء لا تكتب الا بالدماء ·

كيف استطاعت هذه اليد ، ان تروي مثل هذا العذاب ؟ كيف احتملت اعادة الزمن مرتين ، الحادثة ، مرتين ، المشهد مرتين ، والمرة الاولى كافية بأن تقذف الى القلب مذاق الخل ولون السراب · واجب ، ضعف ، او حنين او رجاء ··

جميع هذه المشاعر والمواقف · فلا بد من ان يقال شيء بأستطاعته ان يبقى عينا مفتوحة لئلا يتم النسيان ، ولئلا تمحى تلك الحكايات الى الابد ·

كان لا بد من التوقف ومن ايقاف هذا الصراخ العالي من الدوران حول الوطن وحبسه بين الخطوط ليبقى علامة للذين كانوا خارج الدائرة يسمعون ما يصل الى الخارج من اصداء · وليكون اشارة للذين سوف يتقدمون الى الداخل بحثا عن الذي جرى · وعن عشيةكانت تنبت سعيدة بالظلال ، وجبهة كانت تنسج احلامها في الخفية عن حب عظيم ·

ايام الحرب ، لكن هذه المرة تستريح على البياض · وتختبيء في عروق صغيرة ، هي عروق خطوط الحبر الاسود التي تتحول الى عين ، ويد ورصاص ، وموت ، كلمة تنغرز في القلب بعد انتظار طويل ·

هل نحن هنا لندين الحرب ؟ هل هذه الرسوم تدينها ؟

كلا ليس هذا هو الموضوع ،ولم تكن الرغبة تتجه نحو الهدف ، ولم تكن الحاجة كذلك لكي تتقدم هذه اليد وتروي لنا ما روت ·

كلا ليست الرسوم للدخول الى المسام الى هذه العاصفة التي كانت تتقدم وتلف الانسان · كانت الرغبة في الصراخ صراخا اعلى من الضجيج الذي علا في المدينة ، وفوق الجبال ، وفي اعماق القلب · كي تكون الدماء اغلى ، وتكون الشهادة اشد وقعا ، ولكي يرتفع دخان الضحية كحربة على هذه الارض ··· الارض نفسها التي بدأت حروف اسمها تكتب ، ، حين روت اول قطرة دم الانهار ·

وكانت الرغبة · هي الحنين وهي الرجاء كي يجيء كل متعب وكل جريح ، وكل شهيد ، وكل شريد ، وكل بريء وينزل ههنا بيننا · ويكون قريبا وحبيبا وصديقا الى الابد ··

كان لا بد من اعادة ما حدث لكي يكبر الحب ولكي يتعلم القلب مزيدا من الحنان ·

انها الرغبة كي يتحول المرء نفسه الى المكان الذي يشهد كل شيء ويرى كل شيء ويستقبل كل شيء : القنابل ، والصمت ، والدماء ، والغضب ، والدمع · والموت ··· ليصبح الانسان شاملا واكبر من الانسان ، تصبح الارض او الوطن او الزمن نفسه الذي كان الشاهد الذي لا يستطيع ان يتوقف لحظة ليروي ما جرى ·

من هنا نفهم هذا العذاب ، هذه القسوة وهذا الصبر في القدرة على رواية حكايا السقوط ، وحكايا الضعف وحكايا الجنون ،وحكايا الجوع ، وحكايا الحب ايضا ··

ومن هنا نفهم هذا الصراع او اقتراب الاطراف المتناقضة جنبا الى جنب في حكاية واحدة : الحديث عن الموت والحديث عن مواجهة الموت · الحديث عن الالم والحديث عن الانتصار على الالم · بأختصار الحديث عن الموت والحياة في آن معا · اي كان القصد التوحد بحيث لا تصير الحياة عذابا على الخسارة ولا يصير الموت شاهدا حقيقيا على الخسارة · كان القصد يجري نحو التوحد بحيث لا يعود المرء بقادر ان يفرق بين الوجهين ، وجه الضحية ووجه الشاهد ·

جميل ملاعب · رسم · أو شهد أو بكى او اشار الى انه كان يرى

ويسمع ويشاهد · وهذا بعضا مما رأى وسمع وشاهد ·
وربما ينتهي الجواب عند هذه الحدود ، وتنتهي معه الرغبة في السؤال من جديد · الا ان المرء يشعر انه هو ايضا كان على الارض نفسها وضمن الدائرة نفسها وانه يخاف كذلك من الادلاء بشهادة : ان الدماء ما تزال تنبض وستبقى الى زمن طويل · انها بداية الطريق التي سوف تقودنا من جديد الى تلك الحكايات التي تبدأ برحلة الدماء عبر التراب لتطلع وردة في البساتين ·

سمير الصايغ